دراسات في حضارة الإسلام

تأليف : هاملتون جب

تحرير : ستانفورد شو

وليم بولك

ترجمة : الدكتور إحسان عباس

الدكتور محمد يوسف نجم

الدكتور محمود زايد



ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

تلفون: ٢٩١٠٢٧-٢٢٤٥٠٢

الطبعة الثالثة

نيسان (ابريل) ١٩٧٩

الفصل الثالث

العلاقات العربية البيزنطية زمن الخلافة الأموية

تحتل قصة الحرب بين الاسلام وبيزنطة مكاناً بارزاً يكاد يجيء مستقلا قائماً بذاته في ما ندرسه من كتب تاريخية ومراجع مستمدة من المصادر الاصلية . فلو ان طلبة تاريخ العصور الوسطى رأوا في هذا العنوان : « العلاقات العربية البيزنطية » سجلاً لا يكاد يتعدى أخبار الحروب المتواصلة لكانوا في ذلك معذورين . وهذا السجل على هذا النحو لا يخالف الحقيقة ، لأن الحروب عند الثغور استمرت دون انقطاع تقريباً طوال قرون . لكن هل كانت بين الفريقين علاقات من نوع آخر ؟ ليس القول بذلك سهلاً لأنا إذا استثنينا الحروب والعلاقات الناجمة عنها كشئون المهادنات والسفارات ، وجدنا ان مصادر القرون الوسطى لا تشير إلى علاقات أخرى إلا اشارات تكاد تعد على الاصابع . غير ان الأمر في هذه الناحية لا يبلغ حد اليأس اذ نستطيع أن نكمل تلك المواد القليلة إذا أمكننا ان نستغل بضع حقائق وتفصيلات أخرى .

وعلينا عند معالجة موضوع من هذا النوع أن نذكر اعتبارين عامين . أولهما : ان كل من تصدى لتقديم صورة جامعة عن احدى المسائل

التاريخية في القرون الوسطى فعليه ان يقوم بجمع كل الشذرات والنبذ المتناثرة وان يسد الثغرات الباقية بالاستنتاج المنطقي ، ذلك ان تواريخ القرون الوسطى مهما تكن حسناتها (وهي كثيرة) يشوبها نقص يكاد يعمها جميعاً ، وهو انها أثناء عرضها للأحداث تضيق مجال نظرتها اليها . فأكثر تلك التواريخ يدور حول بعض نظم الحكم ، كأعمال الخلفاء والاباطرة والسلاطين ، وهذا النوع منها يعنى بالشئون السياسية التي أداها نظام خاص أو بالشئون التاريخية ، ونادراً ما يلتفت إلى أشياء وأمور حدثت في مكان آخر . يعني ان المعيار الذي تهتم به تلك التواريخ هو ما يمكن تسميته « بالمستوى الرسمي » أي مستوى الامور التي كانت موضع اهتمام الدوائر الرسمية أو كانت تؤثر فيها ، حتى ولو كانت أموراً بالغة التفاهة وردت من العاصمة . وقلما يرد ذكر لشئون الولايات إلا بمقدار ما تؤثر في مجرى الامور في العاصمة كمحاسبة صاحب خراج جشع في احدى الولايات .

ومما يعوض هذا النقص بعض تعويض انه بقيت لنا بضعة تواريخ محلية ، أعني تواريخ لولايات أو مدن ، كمصر أو بخارى ، ترى في تاريخ الخلافة أو الدولة قضية مسلمة وتختار ان تتناول شئونها المحلية دون سواها . لكن هذه التواريخ المحلية أشد ضيقاً في النظرة وأكثر تركيزاً على ما أسميناه « المستوى الرسمي » أو المستوى التقليدي ، فمثلاً ثمة تاريخ محلي لمصر يمدنا بجل الاخبار المبكرة عن مغامري الاندلس الذين احتلوا جزيرة كريت عام ٨٢٧ م . لكن هذا الكتاب إنما أورد تلك الاخبار عرضاً ، لأنها تهمه في اظهار ما سببه اولئك المغامرون من ازعاج لولاة مصر ، حين احتلوا الاسكندرية ، أما كيف قدموا اليها وماذا حل بهم بعد أن ارتحلوا إلى كريت فذلك مما لا يهم المؤرخ المصري أبداً . ذلك كله يدلنا على قيمة الاعتبار الاول وهو جمع الشذرات المتناثرة وسد الثغرات بقوة الاستنتاج .

فاما الاعتبار الثاني العام فانه يتصل بالاول . وذلك ان كل مجتمعات القرون الوسطى ، ومنها المجتمعات الشرقية ، ضعيفة الترابط فيما بين وحداتها . ونحن نجانب الواقع تماماً إذا افترضنا ان مصالح الفئات المختلفة ومجالات نشاطها في أي مجتمع منها تطابق مصالح الطبقة الحاكمة ومجالات نشاطها ، ومن غير الواقع ان نفترض انها كانت تخضع لنظام الحكم خضوعاً دقيقاً يتعدى حد الاشراف العام . وكان نسيج المجتمع المعقد يتألف من وحدات صغيرة كقطع الفسيفساء تحيا كل وحدة منها حياتها الخاصة ، وتدبر شئونها ، وتذب عن نفسها بمعزل عن الجماعات الأخرى في غالب الامر ، ومن غير ان توجه اهتماماً إلى اعمال الفئات الأخرى وإلى مدى موافقة تلك الاعمال لسياسة الدولة .

وإذن فمشكلتنا الكبرى هي العثور على معلومات تلقي بصيصاً من الضوء على العلاقات العربية البيزنطية ، عدا العلاقة الحربية ، خلال قرن واحد من التاريخ الاسلامي ، وهو القرن الذي شهد وجود الخلافة الأموية في دمشق من عام ٦٦١م إلى عام ٧٥٠م .

أما العلاقات بين العرب والبيزنطيين ، قبل الاسلام ، فانها معروفة جيداً وإن كانت تفاصيلها التامة لم تستخرج حتى اليوم [١] . واما في ظل الاسلام فان العلاقات النظامية أو الرسمية ، ان صحت تسميتها كذلك ، تبدأ بقيام الخلافة الاموية . وقبل ذلك ، كان «الروم» في نظر العرب هم العدو الذي طرده القادة الفاتحون من الشام ومصر ، ثم أخذوا يتعقبونه بحراً ، في قبرص ورودس ، بل قدر لهم أن يقهروه ويهزموه في أول معركة بحرية خاضها الاسطول العربي . ولما قامت الدولة الاموية أخذت الحال تتغير تغيراً دقيقاً . صحيح ان الروم ظلوا يحسبون اعداء ، وان الجيوش والاساطيل الاسلامية اندفعت حتى بلغت أبواب القسطنطينية مرة أولى وثانية وثالثة ، وظلت الدولة فيما بين هذه الحملات الثلاث الهائلة التي كانت ذرى

قصوى ، ماضية في ارسال الصوائف والشواتي سنوياً ولم تكف عن ذلك حتى بعد اخفاق الغزوة الثالثة ، ولكن ذلك كله كان واجباً رسمياً وضرورياً يقوم بـه الخلفاء امراء المؤمنين ، وهم الذين توجب عليهم طبيعة الخلافة ان لا يكفوا عن جهاد الكفار ، وعليهم ان يسوغوا لدى رعاياهم أحقيتهم بأن يكونوا خلفاء رسول الله بما يقدمون من بلاء في سبيل نشر الدين . هذا إلى ان الجهاد في الوقت ذاته كان يمكنهم من ان يحفظوا على جيوشهم الشامية ما تتمتع بـه من نظـام وسجايا حربية، إذ كانت تلك الجيوش هي عدتهم التي يدخرونها لاخماد الفتن العلنية أو الخفية بين القبائل في الولايات الاخرى .

وعلى هذا جرى الامويون في سياستهم العـامة على سياسة أسلافهم . فاعتبروا بيزنطـة عدواً لهم ، وهـذا هو كل مـا في الأمر . غير ان علاقات الامويين بالبيزنطيين لم تكن ، في واقـع الامر ، مقصورة على محض عـداء قومي أو ديني بأي حـال من الاحوال ، بل كانت تخضـع لمواقف من الميـل والنفور أكثر تعقيـداً مما يبدو .

وإذ كانت القوات الشامية ذات أهمية حاسمة في الحفاظ على الدولة الاموية ، فـان تبيان أصول الجيش الشامي وطريقة توزيعه ذو أهمية في هذا المقـام . كان الجيش الشامي مقسماً في خمسة أجناد : اثنان في جنوب الشام ، واثنان في وسطه وواحد في شماله . وكان أكـثر القسمين الجنوبيين يتألف من قبائل من جنوب الجزيرة العربية وغربها . وكان بعض هـذه القبائل قـد استقر في تلك المواطن قبل زمن طويل من الفتح الاسلامي ، واقام علاقات مـع الحكام البيزنطيين ، وكان بعضهم ممن دخل مع الجيوش الاسلامية . أما جندا الوسط فكانا يتألفان كلهما أو جلهما من قبائل قديمـة الهجرة والاستقرار التحقت بجيوش الروم قبل الاسلام في حروبهم ضد الفرس ، ومنحت الدولة شيوخ

تلك القبائل ألقاباً بيزنطية وتعرف اولئك الشيوخ منذ زمن بعيد إلى القسطنطينية وحكومتها . واما الجند الشمالي فكان أكثره يتألف من رجال القبائل العربية الشمالية الذين وفدوا أيام الفتح ولم يكن لهم أية علاقة سابقة بالبيزنطيين سوى القتال .

وربط الامويون بينهم وبين جندي الوسط وقبائلهما — قبائل دمشق وحمص — بأوثق الروابط الجغرافية وروابط المصاهرة ، فكانت تلك القبائل أشد ما تكون ولاءً للامويين . ومما يشبه اليقين ان هذه الروابط لعبت دوراً في تعريف الامويين بالنظم البيزنطية السابقة ، لكنا ينبغي ألا نبالغ في هذا الأمر مثلما ينبغي علينا الا نبالغ في تصور ما كان للموظفين الذين خدموا الدولة البيزنطية من اثر حين أصبحوا يعملون في الوظائف الادارية بالشام أيام الامويين . ومع هذا فلا مشاحة في ان الامويين نزعوا نزوعاً متزايداً إلى اقتباس المآثر والعادات البيزنطية وحاولوا التشبه بالاباطرة البيزنطيين . ولا ريب في ان العناية الفائقة التي أبداها الخلفاء في صيانة الطرق ، حتى بلغ بهم الامر ان اقتبسوا شواهد المسافات الرومانية ، لم تكن مستوحاة من عرف أو موروث عربي ، وإذا شاء أحد أن يتبين من أين استمدوا ذلك فليتأمل كيف تحولت اللفظتان اللاتينيتان **Veredus** و **Millia** إلى لفظتي « بريد » و « ميل » ، ثم ان أقدم دينار أمر عبد الملك بسكه كان بيزنطي الطابع ، حتى لقد رسم على احدى صفحتيه صورة الخليفة ، ثم حيل بينه وبين ان تتداوله الايدي وسكّ بدله دينار اسلامي الطابع مراعاة للمشاعر الدينية لدى الرعايا المسلمين . وظلت الحفلات خاضعة للعرف العربي والاسلامي مراعاة لتقاليد الرعية أيضاً ، ولكنها كانت تنتحل شيئاً من الاساليب البيزنطية في بطء وأناة ، اما نظام الخراج فقد ظل في الولايات التي كانت تتبع الدولة البيزنطية بيزنطياً في معالمه ، وذلك أمر متعارف مشهور .

ولم يقتصر الامر على تعديل في الاساليب والطرائق العربية أو على اقتباس أساليب وطرائق بيزنطية على نحو ظاهري علني ، فقد دل البحث على ان الخلفاء اتبعوا اسلوباً شديد الخفاء في تقليد الطرائق البيزنطية حين حددوا المعايير الفقهية بما يصدرون من مراسيم ادارية . وتفسير هذا ان القانون الاسلامي في القرن الاول من تاريخه كان ما يزال حديث النشأة ، ولذلك فتح باباً واسعاً لاصدار الاوامر في مسائل دقيقة . ولم يبق شيء من المراسيم الاموية في شكلها الاصلي إلا ان آثارها انكشفت ايجابياً في عدد من أحكام المذاهب الفقهية التي تكوّنت من بعد ، وانكشفت سلبياً في المعارضة الصريحة التي أعلنتها هذه المذاهب ضد الاحكام الاموية وضد مبدأ تحديد القانون باصدار مراسيم أياً كان حالها [٢] .

على ان أبرز ما خلّفه التراث البيزنطي من تأثير يتجلى من نهج الامويين في تشييد المساجد الكبرى . ولا مجال للشك في انهم استوحوا هذا النهج من بيزنطة . وإذا عرفنا ان الخلفاء العباسيين في بغداد لم يتبعوا هذه السياسة في ولاياتهم الرئيسية وان وسعوا حقاً مسجدي مكة والمدينة ، أدركنا على نحو قاطع من أين استمد الامويون هذا الاثر . ولكن بعد زمان طويل ظهر عدد من المؤرخين لا يعطفون على الامويين وهم يستندون أيضاً في أخبارهم على الروايات العراقية ، فلم تكن لهم معرفة بالمثال البيزنطي ، فتوهم هؤلاء ان الامويين حين عمدوا إلى تشييد المساجد الكبرى إنما كانوا يحاولون ان يحولوا أنظار المسلمين عن مكة والمدينة إلى القدس والشام . وليست هذه سوى فكرة خيالية وإن كان المؤرخون الغربيون لا يزالون يرددونها ، ومما يدل على كذبها وسخافة نسجها ، ان مسجد المدينة نفسه كان أحد المساجد الثلاثة الكبرى التي شيّدها الامويون أو أعادوا بناءها [٣] . وقد بقي صدى الرواية الشامية عند المقدسي أحد الجغرافيين الشاميين في القرن

العاشر ، وهو صدى صحيح وان كان متأخراً في الزمن . فيورد المقدسي رواية محلية تذهب إلى أن ما دفع عبد الملك والوليد إلى بناء قبّة الصخرة والمسجد الاموي في دمشق هو خوفهما على المسلمين ان تردهم عن دينهم روعة كنيسة القيامة والمباني المسيحية الاخرى في الشام[٤] . ومن الممكن ان تمثل هذه الرواية شعور المسلمين بالقدس ازاء فخامة الكنيسة بصورة محدودة جداً ، لكن لعلها تحمل أيضاً آثاراً من الدوافع الحقيقية لدى الامويين : ولم تكن تلك الدوافع مجرد منافسة للمباني والمنشآت المسيحية في الشام ، محاولة منهم أن يضاهوا أو يبذوا المثال البيزنطي في العمارة ، وذلك أمر يتبين واضحاً جلياً من قيامهم باصلاح مسجد الرسول بالمدينة . والقول بأن ذلك هو دافعهم الاكبر يزداد ثبوتاً من حادثة معينة تتصل ببناء مسجدين من المساجد الثلاثة — إن لم نقل الثلاثة جميعاً — ومعظم ما تبقى من هذا الفصل سيدور حول تلك الحادثة .

بنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة عام ٦٩٠ م . وبنى ابنه الوليد مسجدَي دمشق والمدينة (والمسجد الاقصى في القدس) بين عامي ٧٠٥ م و ٧١٢ م . فاما الحادثة التي نعنيها فهي الرواية التي ترد في المصادر الاسلامية المتأخرة ومنها ان الخليفة بعث يستعين بامبراطور الروم على زخرفة مسجد الرسول في المدينة والمسجد الكبير في دمشق فأجابه الامبراطور إلى ما طلب . ومن شاء مناقشة هذه الرواية كان عليه أن يدخل في تفصيلات معقدة بعض الشيء ، وذلك لأن إعادة النظر في المصادر دفعت كاتب هذه السطور إلى مخالفة بعض الحجج التي يوردها ثلاثة من الثقات الباحثين القريبي العهد ، وهم الاستاذ ك. أ. س. كْرِزْوِل ، والانسة مرجريت فان بِرْشِم ، والمؤرخ الفرنسي المتوفّى جان سوفاجيه .

وهذه هي الرواية التي دار جميع البحث حولها وهي واردة في تاريخ

المؤرخ الكبير ، الطبري (المتوفى عام ٩٢٣ م) :

« قال محمد » وحدثني موسى بن ابي بكر عن صالح بن كيسان قال : ابتدأنا بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفر من سنة ٨٨ وبعث الوليد إلى صاحب الروم يعلمه انه أمر بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان يعينه فيه ، فبعث اليه بمائة الف مثقال ذهب ، وبعث اليه بمائة عامل ، وبعث اليه من الفسيفساء بأربعين حملاً وأمر ان يتتبع الفسيفساء في المدائن التي خربت فبعث بها إلى الوليد ، فبعث بذلك الوليد إلى عمر بن عبد العزيز (واليه على المدينة) »[٥] .

اضف إلى ذلك ان المقدسي الذي استشهدنا به آنفاً يقول في مسجد دمشق : « سوى ما أهدى اليه ملك الروم من الآلات والفسيفساء»[٦] . ولا حاجة بنا إلى الاخذ بما جدّ على الرواية في المصادر المتأخرة التي كانت تضيف اليها تفاصيل من صنع الخيال كتهديد الوليد للامبراطور إن هو رفض أن يلبي طلبه بغزو ولاياته الشرقية (أو مثل قوله : فان أنت لم تفعل غزوتك بالجيوش وخربت الكنائس في بلدي ، وكنيسة بيت المقدس وكنيسة الرها وسائر آثار الروم)* . ولا ترد فيما لدينا من مصادر رواية شبيهة بالرواية السابقة عند الكلام على تشييد قبة الصخرة في القدس . وعدم وجود مثلها أمر هام في حد ذاته لأنه يشير إلى ان الروايتين المقتبستين دقيقتان ومستقلتان ولا تستندان إلى ما يمكن تسميته « الفرض العام» .

* تاريخ ابن عساكر ٢ : ٢٦ (تحقيق الدكتور صلاح المنجد ، ط. دمشق) .
— المترجم —

وتحاول الآنسة فان بيرشيم ان تكذب رواية الطبري السالفة[٧] فيما هي تعالج ذلك الوصف الشامل المحيط الذي قام بـه كرزول للعمارة في عهد الامويين . فتذكر أولاً ان الرواية لا ترد في المؤلف التاريخي الذي وضعه البلاذري قبل الطبري ، ثم تشكك في ان يكون الطبري صادقاً تماماً ، وتضيف قائلة : « ثم ان الطبري كان فارسياً عاش (بفارس أو بالعراق) في عصر ازدهرت فيه الاساطير حول الخلفاء الاول العظام وذيلت بالزخارف والتنميقات » . وهذا القول ، مع احترامنا البالغ ، بعيد عن الصواب . فالطبري ، أولاً ، غير مسئول الا عن ايراد الرواية . وهو في تاريخه كله ينقل مما يعده أكبر المراجع وثوقاً ، ولم يتطرق أي شك إلى صدقه في النقل والاقتباس . فاذا كان هناك أي نقد فانما يوجه إلى الرواية ذاتها وإلى مراجعها .

ويتضح لنا من منقولات أخرى ان الطبري حين يقول « قال محمد » فانما يعني محمد بن عمر الواقدي الذي توفي سنة ٨٢٣ م ، وهو حقاً من أعلام التاريخ العربي ، وأول من التزم منهجاً منظماً في جمعه لمواد التاريخ الاسلامي الاول . ومما يؤكد ان هذه الرواية منقولة عن الواقدي تلك الاشارات المختصرة اليها فيما تبقى من مؤلفات أخرى وضعت قبل عهد الطبري[٨] ، وان لم يوردها البلاذري (الذي اعتمد كثيراً على الواقدي) في تاريخه المجمل الوجيز . وعلينا أن نلحظ ان البلاذري لا يخصص في تاريخه لاعادة البناء سوى خمسة أسطر . وقد ذكر سوفاجيه ان الطبري اختار اربع روايات عدها « ذات قيمة فذة » عندما كان ينقل من وثائق عديدة لديه متصلة بالحادثة . ومما يستلفت النظر ان الروايات الاربع مستمدة من الواقدي ، وانها كلها تسند إلى شهود عيان ، (وفي كل سنة منها حلقة متوسطة تختلف من روايـة لأخرى) وان اثنتين من تلك الروايات (احداهما الرواية التي اوردناها)

منقولتان عن صالح بن كيسان الذي وكل فعلاً بالاشراف على اعمال الهدم والبناء . فاذا شاء أحد أن ينقض هذه الرواية أو يجرحها فلا بد له من ان يورد حججاً بالغة القوة ، وهذا أمر صعب في الحقيقة إلا إذا هدمنا جميع الاسس التي يقوم عليها التاريخ الاسلامي المبكر . ولا تحاول سوفاجيه نفسه ، كما سنرى بعد قليل ، انكار الرواية أو نقضها ، ولكنه يحاول أن يغير من تفسيرها فقط .

ولنعد إلى الآنسة فان برشم ؛ فبعد تحليل يغلب عليه الاضطراب لهذا النص وغيره اضطرت ان تسلم ازاء عبارة المقدسي — التي تفيد ان الامبراطور بعث بأدوات وفسيفساء لبناء مسجد دمشق — بأن النصوص « غير مقنعة تماماً » فيما يتصل بموضوع المعونة البيزنطية . ولذا تلجأ إلى الحجة الاخيرة وهي ان « الاوضاع السياسية في عهدي عبد الملك والوليد فلما كانت تلائم قيام العلاقات الودية بين بلاطي بيزنطة ودمشق » . ثم تلقي الكاتبة بآخر سهم لديها فتقول : « ألم يشعر حاكم ذو غيرة وطنية كالوليد بشيء من النفور يمنعه من ان يسأل مكرمة من القسطنطينية؟ » (ص ١٦٣ — ١٦٤) .

قد ننحي هذه الحجج الاخيرة — مؤقتاً — ملاحظين ان الموقف الذهني الذي تفترضه ، عصري محدث لا يمكن تطبيقه على أي فترة من فترات تاريخ العصور الوسطى دون أن يتغير جانب كبير منه . ونوجز فنقول : ان حجج الآنسة فان برشم غير مقنعة أبداً إذا نظرنا اليها من الزاوية التاريخية . فاذا تناولت الشواهد الاثرية المستمدة من المباني نفسها وقالت ان زخارف الفسيفساء تكاد تكون كلها شامية الصنع ، فمن المستحيل على امرئ غير مختص بعلم الآثار ان يثير الشك حول استنتاجاتها ، وان كانت تضيف بصراحة قائلة « دون أن ننكر امكان قدوم أحد المَهَرة ، بل عدة مَهَرة ، بصنعة الفسيفساء من القسطنطينية » .

على ان ما هو أدعى إلى الدهشة بكثير ان نجد مؤرخاً دقيقاً مثل جان سوفاجيه يقبل جميع استنتاجات الآنسة برْشِم . بل انه في الحقيقة يتجاوز حد القبول فينكر اشتراك صناع من القسطنطينية في البناء ويرى في هذا الخبر « رواية ذات طابع اسطوري »[٩] . ومن المؤكد انه لا يستطيع ان ينحي الرواية التي أوردها الطبري على لسان البلاذري عن صالح بن كيسان باستخفاف كما تفعل الآنسة برشم ، فقد سبق له أن وصفها بأنها « ذات قيمة فذة » . ولو فعل ذلك لأوقع نفسه في ورطة ، لكنه يخرج من المأزق خروجاً بارعاً حين يعمد إلى إعادة تفسير الرواية . فيقول لعل الفسيفساء في مسجدي دمشق والقدس كانت من صنع نصارى الشام ، وإذا كان الأمر كذلك اهتدينا إلى أصل الرواية التي تجعل الامبراطور البيزنطي يمد يد العون في تشييد المباني الاموية : « فكلمةروم العربية اطلقت – دون تمييز دقيق – على البيزنطيين وعلى النصارى أتباع المذهب الملكاني اليوناني (أي الارثوذكس) الذين يقطنون دار الاسلام ومن ثم أسيء فهم المقصود منها في الاخبار التارخية المتعلقة باقامة المباني » . ويشرح سوفاجيه في أحد هوامشه ان « صاحب الروم » لفظة تدل على الامبراطور البيزنطي أو على « الرئيس (الدنيوي أو الديني) للارثوذكس الملكانيين » . ويضيف إلى هذا قوله بأن اساءة الفهم للرواية الاصلية المتعلقة ببناء مسجد المدينة « نتجت عفواً دون ريب ، ويصح ان نرى فيها ما يكاد يكون تغيراً مقصوداً للمعنى الحقيقي ناشئاً عن اعتبارات سياسية تالية » . ويرد هذه الاعتبارات إلى ان الفئات المتدينة أو المعارضة للامويين حاولت ان تحط من شأن الامويين وذلك بأن تظهر للناس ان غرض الوليد من إعادة البناء « رغم انه عمل يستحق الثناء في حد ذاته ، فانه بادرة مذمومة لأنه أدى إلى أن يسند أمر بناء مسجد النبي نفسه إلى كفّار من رعايا ملك عدو للاسلام » .

وهذه الحجة الاخيرة أدعى إلى اثارة الدهشة لصدورها عن مثل هذا الحجة ، إذ ان كل الادلة والنقول التي يؤيد بها نظريته تكاد تقتصر على ايراد روايات دينية معينة تنكر تزيين الجوامع **بوجه عام** . ولو أدى عمل الوليد إلى انتشار السخط والاستنكار أو إلى انتحاله وتكلفه فحسب لوجدنا التعبير عنه مستعلناً صريحاً ، ولم نكن بحاجة إلى التفتيش عن مواضع الغمز الخفي للامويين . ومن الواضح ان نغمة الروايات المبسوطة المتأخرة تنطوي بالأحرى على الفخر بأن الامبراطور كان — على نحو ما — مضطراً لتقديم هذه المساعدة ، لناس من غير دينه . وقد يعني « صاحب الروم » في بعض النصوص « رئيس جماعة الملكانيين الارثوذكس » ، ولكن يستحسن ممن يقول بهذا القول ان يأتي بأمثلة أخرى تدل على استعمال هذا المصطلح على هذا النحو وفي مثل هذه القرينة . اذن فمن الواضح ان الجهود التي بذلت لتكذيب رواية الواقدي أو إعادة تفسيرها تبوء ، على أي الاعتبارات أخذتها ، بالوهن والاخفاق . وغاية ما يمكن التسليم به (وهو أمر مسلم به) ان الارقام قد تكون تضخمت بعض الشيء حتى قبل أن يتجاوز سند الرواية راويتين .

بيد ان أشد نواحي هذا البحث اثارة للدهشة هو ان اعظم الشواهد جميعاً قد لقي من الباحثين اغفالاً واهمالاً . ففي عام ٨١٤ م ألّف عالم من علماء المدينة اسمه ابن زبالة « تاريخ المدينة » وهو كتاب لم يصل الينا منه إلاّ ما نقل في المصادر المتأخرة . ومن المناسب لسياق هذا البحث ان نورد ما يقوله سوفاجيه عن تاريخ ابن زبالة ؛ يقول : « لهذا الكتاب أهمية بالغة في نظرنا . وتعتمد أهميته (١) على شخص مؤلفه ، فهو تلميذ فقيه المدينة مالك بن أنس ... وكان حين ألّف كتابه في وضع يتيح له ان يجمع الروايات المحلية عن التاريخ القديم للمسجد وهو ملم بالمكان واقع في خير الظروف الملائمة لنقل الرواية ونقدها .

(٢)على زمن تأليفه . وهذا يؤكد لنا انه كان في استطاعة المؤلف تقييد أقوال المعاصرين دون حاجة إلى ذكر عدد كبير من الرواة في سلاسل السند ، لأنه كتبه بعد قرن واحـد من تنفيذ أوامر الوليد ببناء المسجد . وطبقاً لما وصل اليه علمنا نقول بأن كتاب ابن زبالة يظل أفضل مرجع نستأنس به حين نريد ان نتحدث عن إعادة بناء المسجد الأموي »(١٠) .

وقد كتب السمهودي (المتوفى عام ١٥٠٦ م) — كتاباً نادر المثال في غزارة العلم والشمول — سماه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى »(١١) . وحفظ فيه مقتطفات من تاريخ ابن زبالة منها العبارة التالية ، وليست هي رواية آحاد وإنما هي رواية أخذت بالتواتر عن ثقات عدول :

> « قالوا(١٢) : وكتب الوليد بن عبد الملك إلى ملك الروم (تأمل) : انا نريد ان نعمر مسجد نبينا الاعظم فأعنّا فيه بعمال وفسيفساء . فأرسل اليه بالفسيفساء وبضعة وعشرين عاملاً — وقال بعضهم بعشرة عمال — وقال : قد بعثت اليك بعشرة يعدلون مائة . وأرسل أيضاً ثمانين ألف دينار عوناً لهم »(١٣) * .

ويبدو في ضوء هذه الرواية التي تكمل ما أوردناه من روايات انه لا يبقى أي مجال للشك بأن الامبراطور البيزنطي أمد المسلمين ببعض العمال وبالفسيفساء لمسجدَي المدينة ودمشق ، وانه بعث كذلك نقوداً أو ذهباً لبناء مسجد المدينة على الاقل(١٤) .

ومع هذا فان مشاركة الامبراطور تثير بضعة أسئلة حول المشاركة

* انظر كذلك كتاب الدرة الثمينة لابن النجار ص : ٣٧٢ (ط . ملحقاً على الجزء الثاني من شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — القاهرة ١٩٥٦) . — المترجم —

نفسها وحول مضاعفاتها . كيف تأتى للامويين الذين كانوا في حرب تكاد تكون متصلة مع الروم ان يتقدموا بهذا الطلب مرتين على الاقل وان يلبى طلبهم كل مرة ؟ (ولو انك رجعت إلى تاريخ الطبري لوجدته يورد بعد الرواية الـتي تتعلق بهذه المساعدة خبراً عن عدد من انتصارات الجيوش العربية في الاناضول) . بل لنسأل أولاً كيف بعثوا بالطلبين ؟ ها هنا على وجه الدقة تتجلى نقائص التواريخ – بعبارتها الموجزة «قال» – فقد الفت التواريخ بعد ذلك بأكثر من قرن في العراق واعتمدت في الاكثر على الاخبار العراقية . وإذا استثنيت اعمال الخلفاء الرسمية وجدتها لا تمدنا إطلاقاً بأية أخبار عن الشام في العهد الاموي . لذلك فان تاريخ القرن الذي شهد دمشق عاصمة دولة تمتد من أواسط آسيا حتى اسبانيا لا يعرف منه شيء سوى نتف وشذرات يمكن جمعها من الحفريات ، ومواد مبعثرة تستمد من مصادر أخرى .

ولما فقدنا المعلومات الضرورية عن الاحوال الداخلية في الشام ساد الظن بيننا بأن فتح العرب لها كان عاملاً في توقف علاقاتها التجارية السابقة مع الاقطار البيزنطية توقفاً تاماً . لا ريب في ان تلك العلاقات انكمشت انكماشاً شديداً ، ولكن من نسبة الشيء إلى غير زمنه ان نسبغ على حياة القرون الوسطى ظواهر من طبيعة العلاقات السياسية الحديثة . ذلك ان حالة الحرب الرسمية لم تكن تستدعي بالضرورة توقف جميع العلاقات التجارية أو المجاملات . ولدينا شاهد يقيني ، ذكره ابن جبير في رحلته ، على اتصال تجاري مزدهر كان يقوم بين المدن الاسلامية في الشام وميناءي الصليبيين في صور وعكا خلال الحروب الصليبية [١٥] ، وهو اتصال لم يكد يتأثر اطلاقاً بالاعمال العسكرية الناشبة حينئذ بين الامراء المتنازعين وجيوشهم .

على اننا ندين للمصادفة السعيدة إذ لا نضطر إلى التخمين المحض فيما

يختص باستمرار قدر معين من التبادل التجاري بين بيزنطة والشام ومصر في العهد الاموي . فالمراجع العربية لا تزال تحتفظ بعدة اشارات مقتضبة إلى هذا التبادل :

١ — حوالي عام ٨٤٠ صنف ابو عبيد القاسم بن سلام مجموعة كبيرة قيمة من الروايات عن التنظيمات المالية في الدولة الاسلامية ، تحفظ لنا ، على عكس الحال في المؤلفات العراقية التي تفضله في الموضوع ، عدداً من الروايات الشامية . فهو حين يتطرق إلى موضوع الضريبة المفروضة على تجار الثغور أو أهل الحرب يذكر في هذا الأمر سنة سنها عمر بن الخطاب (٦٣٤—٦٤٤) ويجوز لنا ان نشك في صحة ذلك بناءً على ان المسلمين نسبوا جميع القواعد التي تقررت بعد وفاة الرسول إلى عمر . يقول ابو عبيد وكان مذهب عمر فيما وضع من ذلك انه كان يأخذ من المسلمين الزكاة (بنسبة اثنين ونصف بالمئة) ومن أهل الذمة خمسة بالمئة ويأخذ العُشر على تجارة أهل الحرب وانه انما فرض عليهم العُشر « لأنهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله إذا قدموا بلادهم » . وبعد هذا ببضعة سطور يحدد من هم التجار أهل الحرب على نحو لا يقبل اللبس ، فيقول : « الروم ، كانوا يقدمون إلى الشام »[١٦] .

٢ — وأصدر عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠) امراً إلى العمال قضى فيه ألا توضع العراقيل في سبيل من يتاجرون بحراً * . وهذا شيء

* يشير المؤلف هنا إلى مـا أورده ابن عبد الحكم في كتابه « سيرة عمر بن عبد العزيز » ، وهذا نص ما جاء هنالك : « واما البحر فانا نرى سبيله سبيل البر ، قال الله سبحانه (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله) فاذن فيه ان يتجر فيه من يشاء ، وأرى ان لا نحول بين أحد من النـاس وبينه ، فـان البر والبحر لله جميعاً سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله ، فكيف نحول بين عبـاد الله وبين معايشهم » . (سيرة عمر : ٨٢ ، الطبعة الثانية — القاهرة) . وهذا النص كما يرى القارئ يشير إلى حكم عام ، ولعله لا يتحمل شيئاً من الاستنتاج الذي يريده المؤلف . — المترجم —

محير لأنه ليست هناك على ما يظهر اخبار عن عراقيل اقامها الولاة العرب في وجه التجارة بحراً في القرن الاول من تاريخ الاسلام . بل الواقع ان البصرة كانت قد أقامت تجارة بحرية مزدهرة في الخليج الفارسي . وأشد التفاسير احتمالاً ، وان كنا نقر أنه تفسير استدلالي ، ان هذا الخبر لا بدّ وانه يشير كذلك إلى الشام وإلى التجارة بين الموانئ الشامية والاقطار البيزنطية . ولدينا شواهد ضئيلة جداً غير مباشرة في الاغلب عن أمكنة مثل انطاكية واللاذقية وهي تدل على ان هذه الاماكن بقيت فيما يبدو مزدهرة بعد الفتح العربي ، وكان من الصعب أن تكون كذلك لولا التجارة [١٧] .

٣ – ووردت العبارة التالية في الروايات العربية عن قيام عبد الملك بسكّ الدنانير : « كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض العرب وتأتي من قبلهم الدنانير » [١٨] .

٤ – على ان العبارة الرابعة أكثر دلالة من سابقتها وتفتح نافذة على موضوع هذا البحث . فهناك تاريخ لمصر كتبه في القرن التاسع ابن عبد الحكم (وهو المؤلف الذي ذكر أمر عمر بن عبد العزيز في كتاب له آخر) . وعندما يتحدث عن خطط العرب في الفسطاط يتناول بشيء من الاسهاب نزاعاً دار حول امتلاك بيت يدعى « دار الفلفل » [١٩] وهذا النزاع هو بالطبع موضع اهتمامه الرئيسي ، ولكنه يقول في ملاحظة عابرة : « وإنما سميت « دار الفلفل » لأن اسامة بن زيد التنوخي إذ كان والياً على خراج مصر ابتاع من موسى بن وردان فلفلاً بعشرين الف دينار ، كان كتب فيه للوليد بن عبد الملك ، اراد ان يهديه إلى صاحب الروم فخزنه فيها » .

ولا ريب في ان تعبير « صاحب الروم » في هذه الجملة يشير دون حاجة لتأويل إلى امبراطور بيزنطة . كما ان هذه الملاحظة تمدنا فيما يبدو

بمفتاح لكل ما جرى في ذلك الصدد . إذ انها ، على هذا الوجه ، افهمتنا ان الوليد لم يكن بحاجة إلى أن يقوم بتهديد الامبراطور بالويل والثبور ولا كان يخشى أن يضحي بمشاعره الوطنية التي زعمتها الآنسة برشم (أياً كان معنى هذه المشاعر) في سبيل نيل مكرمة من البيزنطيين . وإذا كانت هذه الهدية قد قدمت مرة فلا داعي لأن تكون بيضة الديك؛ لقد وصلتنا هذه الرواية القيمة وهي كفيلة بأن تبين لنا ان استمرار العلاقات التجارية جعل تبادل المجاملات بين البلاطين أمراً ممكناً حتى حين كانت الدولتان في حرب وخصام .

ولنعد أخيراً إلى المسائل العامة : لقد ذهب بعضهم أحياناً إلى القول بأن دولة الامويين كانت من عدة وجوه «وريثة» خلفت الامبراطورية الرومانية الشرقية رغم ما بين الدولتين من تضارب عقائدي في ميدان الدين . ولكن المرء قد يرى ان الاباطرة في البلاط البيزنطي كانوا يزعمون لأنفسهم من الناحية الرسمية ان الخلفاء ليسوا سوى جماعة أخرى من البرابرة الغزاة ، انتزعوا بعض ولايات الامبراطورية وتناسوا انهم في حقيقتهم امراء تابعون لبيزنطة . ولهذا غضب جستنيان الثاني عندما سكّ عبد الملك الدنانير إذ عدّه مفتئتاً بذلك على امتيازات الامبراطور . غير ان الخلافة الاموية كانت في موقفها من الامبراطورية البيزنطية شيئاً أكثر بكثير من مجرد دولة وارثة تابعة . فان وجهي سياستها ، وهما الهجوم العسكري والتكييف الاداري ، يشيران بجلاء إلى المطمح الحقيقي الذي كان يساور خلفاء القرن الاول ، وهو مطمح لم يكن يرضى بشيء دون فتح القسطنطينية وجعلها مركزاً للاسرة الحاكمة . فاذا نظرنا إلى الامور التي حاكوا بها الادارة البيزنطية ، أو التي نقلوها بعد التعديل ، من هذه الزاوية وجدناها تتخذ طابعاً مبايناً ، فذلك كله لم يكن ولاء يبديه امراء غفل سذج نحو مآثر اسلاف لهم ، بل محاولة عامدة منهم غايتها دراسة الحيثيات واعداد أنفسهم

للسيطرة على مقدرات الامبراطورية .

لكن بعد المصاب (او النصر) الذي حل عام ٧١٨ م تحولت سياسة الخلفاء الامويين جملة تحولاً حاسماً عن المأثور البيزنطي واتجهت في الحقيقة إلى الشرق . ويتجلى هذا التغير الذي لم يدركه دارسو تاريخ العرب حتى اليوم إدراكاً تاماً في حكم الخليفة هشام (٧٢٥–٧٣٤) اخي الخليفتين الوليد وسليمان ؛ والثاني منهما هو الذي أرسل الحملة الاخيرة المشؤومة إلى القسطنطينية . غير انه يمكن رؤية اولى الدلالات بعد اخفاق الحملة مباشرة وذلك في سياسة الاصلاح الاسلامية التي نهجها ابن عمهما الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز .

ومن المغري ان نربط هذا التحوّل بخيبة الامل التي قضت على آمال الخلفاء الامويين واحلامهم ، وان نرى فيه نوعاً من التعويض الذي يصفه فرويد – أي نبذاً متعمداً للمأثور البيزنطي جرّه السخط والغضب ، وبحثاً عن بديل أشد طواعية وأكثر جاذبية . غير انه تجاوز حد التعويض بكل تأكيد . فبعد قرن من قيام الدولة العربية في غربي آسيا أخذ البناء الكلي للدولة يتوطد ، وأخذت تبرز أهمية الولايات التي تكون الدولة . وكانت الشام في نطاق توازن القوى لا تزال تتمتع بالتفوق العسكري ، لكن هذا التفوق أخذ يتزعزع حين وضع الخلفاء حاميات شامية في العراق أولاً ثم في سائر الولايات واحدة بعد أخرى لتكفل خضوعها للدولة . اما من الناحية الفكرية (أو الايديولوجية كما نقول اليوم) فان العراق كان قد أصبح مركز الثقافة والفكر الاسلاميين وأصبح ما يؤثر في عرب العراق من عوامل الحكم وتقاليده غير بيزنطي بل أصبح فارسياً معادياً لبيزنطة . وكان الخليفة هشام أول من أدرك ما يعنيه تزايد شأن العراق والشرق ، وأول من تعمد الابتعاد عن مطامح أسلافه في تنظيم الدولة العربية على أسس بيزنطية . وتبدو سياستا هشام ، المالية والادارية ، بناء على ما نستطيع استخلاصه من الشواهد

المباشرة وغير المباشرة ، موجهتين توجيهاً مستمراً نحو جعل الدولة العربية وريثة للمأثور الشرقي وخليفة للامبراطورية الفارسية الساسانية . وهو الذي بدأ بنقل المركز الاداري تدريجاً إلى الشرق ، حين اتخذ الرصافة مقراً له ، وجرى مروان بن محمد على آثاره فكانت حران عاصمته ، وأخيراً ثبت مركز الخلافة في بغداد يوم بنيت في ظل الخلافة العباسية .

التعليقات

(١) تضم الابحاث الحديثة : A. A. Vasiliev, «Notes on some Episodes concerning the Relations between the Arabs and the Byzantine Empire from the fourth to the sixth Century,» **Dumbarton Oaks Papers, 9-10** (Cambridge, Mass., 1955-56), 306-316.

I. Kawar, «The Arabs in the Peace Treaty of A. D. 561» in **Arabica**, III, fasc. 2 (Leyden, 1956), 181-213.

راجع أيضاً بشأن العلاقات العربية البيزنطية المتأخرة .

M. Canard, «Quelques 'à-côté' de l'histoire des relations entre Byzance et les Arabes» in **Studi Orientalistici in onore di G. Levi della Vida**, I (Rome, 1956), 98-119.

(٢) راجع J. Schacht, **The Origins of Muhammadan Jurisprudence** (Oxford, 1950).

(٣) يقال بأن الوليد زين الكعبة أيضاً بالفسيفساء .

(٤) **Bibl. Geographorum Arabicorum, III, 159.**

راجع أيضاً : E. Lambert, «Les Origines de la Mosquée et l'architecture religieuse des Omeiyades» in **Studia Islamica**, VI (Paris, 1956), esp. 16.

(٥) المجلد الثاني ، ١١٩٤ . ويروي مرة أخرى عن موسى بن ابي بكر الذي يروي عن صالح ابن كيسان رواية عن زيارة قام بها الخليفة الوليد لتفقد مسجد المدينة في ٩٣ هـ : المجلد الثاني ، ١٢٣٢ — ٣٣ .

(٦) B. G. A., III, 158.

(٧) K. A. C. Creswell, **Early Muslim Architecture**, I (Oxford, 1932), 156 - 157.

(٨) J. Sauvaget, La Mosquée Omeyyade de Médina (Paris, 1947) 10-11.

(٩) المصدر السابق : ١١١ – ١١٢ .
(١٠) المصدر السابق : ٢٦ .
(١١) راجع ملاحظات سوفاجيه في المصدر ذاته : ٢٧ – ٢٨ .
(١٢) السمهودي ، وفاء الوفا (القاهرة، ١٣٢٦هـ) ٣٦٧ (وتجد سلسلة السند التي تضم ما لا يقل عن سبعة مصادر في ص ٣٦٤ من الكتاب) . وأنا مدين بهذه الاشارة وبالاشارة إلى ابن عبد الحكم للدكتور صالح أحمد العلي .
(١٣) يتلو هذا الاقتباس عدة أخبار جمعها السمهودي من مراجع أخرى . وتضم هذه أرقاماً مختلفة عن عدد العمال ، وتخص بالذكر الشاميين والاقباط منهم. ويضيف خبر منها ان الامبراطور بعث كذلك بسلاسل لقناديل المسجد .
(١٤) لفت م. جون باركر نظري إلى قصة ثيوفانيس (A. M. 6183, ed. de Boor, p. 365). التي تقول ان عبد الملك إذ رغب في بناء « مسجد في مكة » كان على وشك أن يأخذ الأعمدة لبنائه من كنيسة بالقدس ، إلا أنه عدل عن ذلك بتأثير النصارى المحليين الذين أخبروه ان باستطاعتهم اقناع جستنيان الثاني بارسال أعمدة أخرى « وتم هذا » ، ويبدو ان ليس هناك في المراجع العربية ما يؤيد هذه القصة .
(١٥) ابن جبير (رايت – دي غوية) ، ٢٩٨ . ترجمة ر. ج. س. برودهرست (لنــدن ، ١٩٥٢) ، ٣١٣ .
(١٦) ابو عبيد بن سلام ، كتاب الاموال (القاهرة دون تاريخ) الفقرتان ١٦٥١ ، ١٦٥٥ .
(١٧) راجع، H. A. R. Gibb, «The Fiscal Rescript of Umar II» in Arabica, II, fasc. 1 (Leiden, 1955), 6, 11.
(١٨) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، الجزء الاول ، (القاهرة ، ١٩٢٥) ، ١٩٨ . قارن به: J. Walker, Catalogue of the Muhammadan Coins in the British Museum, Arab -Byzantine and Post-Reform Umaiyad Coins (London, 1956), liv: «An exchange of letters between the emperor and caliph led to a breach of diplomatic and trade relations».
(١٩) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، نشره س. س. توري (نيوهافن ، ١٩٢٢) ، ٩٨ – ٩٩ .



ARAB–BYZANTINE RELATIONS UNDER THE UMAYYAD CALIPHATE

HAMILTON A. R. GIBB

THE wars between Islam and Byzantium occupy so prominent, indeed almost exclusive, a place in our history books and in the chronicles on which they draw, that the student of mediaeval history may be excused for taking the rubric "Arab-Byzantine Relations" as a record of little more than continual warfare. The record is not untrue, for in fact frontier warfare lasted almost unbrokenly for a period of centuries. It is not, however, the whole truth. The proof of this statement is not easy, for direct references to relations of any other kind in the mediaeval sources, if we exclude those that arise out of warfare, such as truces and embassies, can almost be counted on the fingers. Fortunately, however, there are, to supplement these scanty materials, a few other facts or details that can be exploited.

In dealing with any subject of this kind there are two general considerations to be borne in mind. Mediaeval chronicles, whatever their merits (and they are many), suffer from one almost universal defect. They present a narrowly-focussed view of events. Those, the majority, written around the activities of some ruling institution, Caliphs, Emperors, or Sultans, concentrate on the political affairs undertaken by or relevant to the history of that particular institution, and rarely note things that happened or activities that were going on elsewhere. Their standard of reference is what may be called the "official level," the level of matters that interested official circles or affected their working, even if they might be the most trivial news items from the capital. The affairs of the provinces are seldom mentioned except insofar as they were reflected in events at the capital, such as the calling to account of some too-enterprising provincial taxmaster.

To compensate for this in part there survive a few local chronicles, histories of provinces or cities, such as Egypt or Bokhara, which take the political history of the Caliphate or Empire for granted and concentrate on their own local affairs. But these are even more narrowly focussed, and in a certain degree even more concentrated at the official or scholastic level. It is a local history of Egypt, for example, that furnishes almost all our early information about the Andalusian adventurers who captured Crete in 827. But this information is incidental only to the trouble which they gave to the governors of Egypt during their occupation of Alexandria, and the local chronicler is interested neither in how they came to be in Alexandria nor, after their departure to Crete, in what happened to them there. Any

attempt, then, to present an overall picture must proceed by fitting together odd bits and pieces, and filling in the gaps by reasonable deduction.

The second general consideration links up with this. In a society as loosely articulated as were all mediaeval societies, and not least in the East, it is completely unrealistic to assume that the interests and activities of all sections of any one society were the same as those of the official class, or were even controlled in more than a general fashion by the governing institution. The complex of society was made up of a mosaic of small communities that lived their own lives, carried on their own affairs and fended for themselves, often in isolation from the other communities, and almost always without much notice being taken of what they were doing or whether it was in agreement with official policy.

The major problem therefore remains — to find the data which may serve as clues to Byzantine-Arab relations, other than warfare, during one century of Islamic history, the century of the Umayyad Caliphate of Damascus, 661–750.

The pre-Islamic relations of the Arabs with the Byzantine Empire are sufficiently well-known, if not yet explored in full detail.[1] Under Islam, regular or official relations, if they may be so termed, begin with the establishment of the Umayyad Caliphate. Before then, the Greeks, the *Rūm*, are simply the enemy whom the Arab generals drove out of Syria and Egypt, finally began to harry at sea, in Cyprus and Rhodes, and even succeeded in defeating in the first naval battle of an Arab fleet. With the establishment of the Umayyads, the situation begins to alter subtly. To be sure, the Greeks are still the enemy, and Arab armies and fleets push their way through to the gates of Constantinople once, twice, and yet a third time; and in between these massive culminating enterprises, and after the failure of the last, maintain a program of annual incursions in winter and spring. All this is the formal and indispensable public duty of the Caliphs, the Commanders of the Faithful who are bound by the conditions of their office to pursue the Holy War against the Unbelievers, and who must justify their claim to be the Successors of the Prophet in the eyes of their Muslim subjects by visibly striving for the extension of Islam. At the same time, it serves to maintain the discipline and fighting qualities of their Syrian troops, for on this de-

[1] Recent studies include A. A. Vasiliev, "Notes on some Episodes concerning the Relations between the Arabs and the Byzantine Empire from the fourth to the sixth Century," *Dumbarton Oaks Papers*, 9–10 (Cambridge, Mass., 1955–56), 306–316; and I. Kawar, "The Arabs in the Peace Treaty of A.D. 561" in *Arabica*, III, fasc. 2 (Leiden, 1956), 181–213. See also M. Canard, "Quelques 'à-côté' de l'histoire des relations entre Byzance et les Arabes" in *Studi Orientalistici in onore di G. Levi della Vida*, I (Rome, 1956), 98–119, for later Arab-Byzantine relations.

pends their ability to control the open or suppressed insubordination of the Arab tribesmen in the other provinces.

The public policy of the Umayyads, then, remains the same as that of their predecessors. Byzantium is the enemy, and that is all there is to it. In reality, however, the Umayyad relations with Byzantium were by no means confined to simple national or religious hostility, but were governed by more ambivalent attitudes of both attraction and opposition.

Since the Syrian troops were of crucial importance for the maintenance of the Umayyads, the origins and distribution of the Syrian army are of some significance. It was grouped in five divisions, two in the south, two in the center, and one in the north. The southern divisions were composed mainly of Southern and Western Arabian tribes, some of whom were established there well before the Islamic conquest and in relations with the Byzantine governors, and some of whom had come in with the Islamic armies. The central divisions were formed almost solidly of old-established tribes, who had in pre-Islamic days been enrolled as auxiliaries of the Greeks in the wars with Persia, and whose chiefs had held Byzantine titles and had long been familiar with Constantinople and its government. The northern division, on the other hand, was composed chiefly of North-Arabian tribes who had come in at the time of the conquests and had known no relations with Byzantium except in warfare.

It was the central divisions and tribesmen, those of Damascus and Emesa, with which the Umayyad Caliphs were most closely associated, both by geography and by marriage relations, and who were their most devoted supporters. There can be little doubt that this connection played some part in familiarizing the Caliphs with the former Byzantine institutions, but it must obviously not be exaggerated. Nor must even the influence of the ex-Byzantine officials who continued largely to staff the administrative services in Syria be overstressed. Nevertheless, the increasing tendency of the Umayyads to adopt Byzantine usages and to emulate the Greek Emperors is a patent fact. The remarkable care shown by the Caliphs for the upkeep of roads, even to the extent of imitating the Roman milestones, was certainly not inspired by Arabian custom or tradition; and the further facts that the Latin *veredus* and *millia* were transposed into Arabic as *barīd* and *mīl* show where the idea came from. The earliest gold coinage of the Caliph ʿAbd al-Malik was Byzantine in design, even to the extent of bearing an effigy of the Caliph, until it was withdrawn and replaced by a more orthodox Muslim design in deference to the religious feeling of his subjects. In ceremonial also, although it continued on the whole to be governed by Arab and Islamic usage (again in deference to the traditions

of the subjects), there was a slow process of small adjustments to Byzantine practice; and, as is well-known, the ex-Byzantine provinces retained their Byzantine systems of revenue administration.

In addition to these adaptations or adoptions of the outward usages of Byzantium, recent research has revealed a more subtle way in which the Caliphs were imitating Byzantine usage, by the practice of defining legal norms by administrative rescript. Islamic Law was in its first century still fluid or inchoate in detail, and left open a wide field for regulation on specific points. Although few of the Umayyad rescripts have survived in their original form, the traces of them have been discovered both positively, in a number of rulings of the later law schools, and negatively, in the declared opposition of these schools to some of the Umayyad rulings and to the principle of definition of law by rescript in general.[2]

The most striking legacy of the imperial heritage, however, is furnished by the Umayyad policy of erecting imperial religious monuments. The Byzantine inspiration of this policy is beyond doubt, and is made more unmistakeable by the fact that this policy was *not* followed by the ʿAbbāsid Caliphs of Baghdād in their capital provinces, although they did enlarge the mosques of Mecca and Medīna. Certain Muslim historians, of much later date, and not generally sympathetic to the Umayyads (besides being based on ʿIraqi traditions, and therefore ignorant of the Byzantine example), surmise that the object of the Umayyad Caliphs was to replace Mecca and Medīna as religious shrines by Jerusalem and Damascus. This is a fantastic idea, even though it is still echoed by western historians, and obviously belied by the fact that the mosque of Medīna was one of the three imperial monuments built or rebuilt by the Umayyads.[3] An echo — a belated, but nevertheless authentic echo — of the native Syrian tradition has survived in the work of the tenth-century geographer al-Maqdisī, a native of Jerusalem. He cites a local tradition that the Umayyad Caliphs ʿAbd al-Malik and al-Walīd were moved to build the Dome of the Rock and the Great Mosque at Damascus by fear lest the Muslims be tempted away from their faith by the magnificence of the Church of the Holy Sepulchre and other Christian edifices in Syria.[4] The tradition may possibly reflect rather too narrowly the outlook of Jerusalem, but it very probably preserves a trace of the true motives of the Umayyads: not simply to rival the Christian edifices in Syria, but also (as the reconstruction of the Prophet's Mosque at

[2] See J. Schacht, *The Origins of Muhammadan Jurisprudence* (Oxford, 1950).

[3] Al-Walīd is said to have embellished also the Sanctuary at Mecca with mosaics.

[4] *Bibl. Geographorum Arabicorum*, III, 159. See also E. Lambert, "Les Origines de la Mosquée et l'architecture religieuse des Omeiyades" in *Studia Islamica*, VI (Paris, 1956), esp. 16.

Medīna shows even more clearly) to emulate the imperial example. That this was a leading motive is made still more certain by a particular circumstance relating to the construction of at least two of the three mosques, to which most of this paper will be devoted.

The Dome of the Rock was built by ʿAbd al-Malik about 690; the mosques of Damascus and Medīna (as well as the Aqṣā Mosque at Jerusalem) by his son al-Walīd I, between 705 and 712. The circumstance in question is the tradition current in later Muslim sources that the Caliph requested and obtained the aid of the Greek Emperor for the decoration of the Prophet's Mosque at Medīna and the Great Mosque at Damascus. The discussion of this tradition involves entering into somewhat complicated detail, since a fresh study of the sources has led the present writer to disagree with some of the arguments put forward by the most recent and authoritative writers on these three monuments, Professor K. A. C. Creswell, Mlle. Marguerite van Berchem, and the late French historian, Jean Sauvaget.

The tradition on which all discussion has hitherto centered is one contained in the great chronicle of al-Ṭabarī (d. A.D. 923):

> "Muḥammad says: Mūsā b. Abū Bekr told me that Ṣāliḥ b. Kaisān said: 'We began to pull down the mosque of the Prophet in Ṣafar 88 (i.e. January 707). Al-Walīd had sent to inform the lord of the Greeks (*Ṣāḥib al-Rūm*) that he had ordered the demolition of the mosque of the Prophet, and that he should aid him in this work. The latter sent him 100,000 *mithqāls* of gold, and sent also 100 workmen, and sent him 40 loads of mosaic cubes; he gave orders also to search for mosaic cubes in ruined cities and sent them to al-Walīd, who sent them to [his governor in Medīna] ʿOmar b. ʿAbd al-ʿAzīz.' "[5]

Further, in regard to the Mosque of Damascus, the geographer al-Maqdisī, already cited for the Syrian tradition, says: "The implements and mosaics for the mosque were sent by the king of the Greeks."[6] The developments of this tradition in the later Arabic works, progressively elaborating the story with imaginative detail, such as al-Walīd's threat to the Emperor to devastate his eastern provinces if he refused the request, need not be taken into consideration. So far as is known at present, no similar statement is found in regard to the construction of the Dome of the Rock at Jerusalem. This

[5] II, 1194. Mūsā b. Abū Bakr is again quoted as intermediate authority for a tradition from Ṣāliḥ b. Kaisān relating the visit of inspection of the caliph al-Walīd to the mosque at Medīna in A.H. 93: II, 1232–3.

[6] *B.G.A.*. III. 158.

omission may itself be significant, as an indication that the two traditions quoted are specific and independent, and do not rest upon what may be called a "general hypothesis."

In Creswell's great survey of Umayyad architecture, Mlle. van Berchem attempts to discredit the tradition cited by al-Ṭabarī.[7] She points out first that it is not included in the earlier historical chronicle of al-Balādhurī, and proceeds to question al-Ṭabarī's complete veracity, adding: "Moreover, Ṭabarī was a Persian and he lived (in Persia or in 'Iraq) at an epoch when legends concerning the first great Khalifs had already blossomed in a very luxuriant fashion." Now this, with all due respect, is a preposterous assertion. To begin with, al-Ṭabarī has no responsibility for the tradition beyond reporting it. Here, as in the whole of his history, he simply quotes what he regards as the most reliable sources, and there has never been any question of his veracity in quoting these sources. Any criticism must therefore be directed to the report itself and *its* sources.

"Muḥammad says." As many other passages make clear, this is Muḥammad b. 'Omar al-Wāqidī, who died in 823 – a truly prodigious figure in Arabic historiography, the first systematic collector of the materials for the early history of Islam. That this report was really transmitted from him is certain from brief allusions to it in other surviving works prior to al-Ṭabarī,[8] even though al-Balādhurī (who also based his chronicles largely on al-Wāqidī) omits it in his summary chronicle; but in this, it should be noted, he devotes only five lines or so to this reconstruction. Now, as Sauvaget points out, al-Ṭabarī, in selecting from the mass of documents at his disposal relating to this event, chose four which were *d'une qualité exceptionelle.* What is remarkable is that all four are taken from materials collected from al-Wāqidī, that all four relate the statements of eye-witnesses on the evidence of *one* intermediate link (a different one in each narrative), and that two of them (of which this particular report is one) are statements of Ṣāliḥ b. Kaisān, who was *the officer actually in charge of the work of demolition and reconstruction of the mosque.* We should need to discover extraordinarily strong arguments to disprove the authenticity of this narrative; it is indeed difficult to see any way of doing so except by demolishing the entire foundations on which early Islamic history rests. Sauvaget himself, as will be seen presently, makes no attempt to deny or disprove the statement, but tries only to change its interpretation.

To return to Mlle. van Berchem. After a long and methodically rather confused analysis of this and other texts, she is finally compelled, in face

[7] K. A. C. Creswell, *Early Muslim Architecture*, I (Oxford, 1932), 156–7.
[8] J. Sauvaget, *La Mosquée omeyyade de Médine* (Paris, 1947), 10–11.

of the formal statement quoted above from al-Maqdisī – that the Emperor sent implements and mosaics for the work on the mosque of Damascus – to concede that the texts are "not absolutely conclusive" on the subject of Byzantine assistance. And so she falls back on the final argument: that "political conditions under the reigns of 'Abd al-Malik and al-Walīd were scarcely favourable to friendly exchanges between the court of Byzantium and that of Damascus," adding as a final fling: "Would not so patriotic a monarch as al-Walīd have experienced some reluctance in asking a favour from Constantinople?" (pp. 163–4).

These final arguments may be set aside for the moment with the remark that the attitude of mind that they presuppose is too much a modern one to be applied without a good deal of shading to any period of mediaeval history. To sum up, Mlle. van Berchem's arguments on historical grounds are entirely unconvincing. When, on the other hand, she comes to the archaeological evidence from the monuments themselves, it is impossible for the layman to question her conclusions that the mosaic decorations are almost wholly Syrian in workmanship, although she explicitly adds: "without denying the possibility of one or even several master-mosaicists having come from Constantinople."

It is much more surprising, however, to find such a careful historian as was Jean Sauvaget practically accepting the whole of Mlle. van Berchem's conclusions. Indeed, he goes even further, to deny as a "tradition of legendary character" the participation of workmen from Byzantium.[9] To be sure, he cannot wave aside as airily as she does the tradition reported by al-Ṭabarī through al-Wāqidī from Ṣāliḥ b. Kaisān, which he has already described as a tradition "of exceptional quality." This would seem to involve him in a dilemma, but the dilemma is ingeniously resolved by a reinterpretation of the tradition. The fact that the mosaics of Damascus and Jerusalem are "more probably" (*plutôt*) the work of Syrian Christians gives the clue, he says, to the origin of the tradition which represents the Byzantine Emperor as taking a hand in the construction of the Umayyad monuments: "the Arabic word *Rūm* (properly "Romans") having been used indifferently to denote the Byzantines and the Christians of the Melkite [i.e. Orthodox] Greek rite who lived in Muslim territory, there has been a misunderstanding of the meaning to be given to it in historical narratives relating to the construction of these monuments." *Ṣāḥib al-Rūm*, he explains in a footnote, may mean either the Byzantine Emperor or "the head (spiritual or lay) of the Greek Melkites." The misunderstanding in the original tradition relating to the Mosque of Medīna, he adds, "was no doubt perfectly innocent, and it is

[9] *Op. cit.*, 111–2.

permissible to see in it a more or less conscious alteration of the true meaning under the influence of political afterthoughts." These, he explains, were due to the attempt, in pious or anti-Umayyad circles, to cast discredit on the Umayyads by representing al-Walīd's purpose in reconstructing the mosque, "laudable in itself, as a blameworthy initiative, because it led to having the Prophet's own mosque rebuilt by infidel subjects of a monarch who was the enemy of Islam."

This last argument is even more surprising, coming from the pen of such an authority; in fact he produces little evidence to support it beyond quoting certain pietistic traditions against the decoration of mosques *in general.* If there had really been any widespread, or even factitious, resentment of al-Walīd's initiative, one would expect to find it expressed in much more open terms, without having to guess at an anti-Umayyad implication. In the later elaboration, at least, the tone is clearly one rather of exultation that the Emperor was in some sense contrained to do this service on behalf of the rival Faith. And finally, although *Ṣāḥib al-Rūm* may possibly, in certain contexts, mean "the chief of the Orthodox Melkite community," it would be desirable to find other instances of its use in this sense and in such a context. On all grounds, therefore, it is evident that the efforts to discredit or reinterpret the tradition transmitted by al-Wāqidī carry no conviction. The most that might be admitted (but that readily) would be that the figures may be suspected of having grown a little even in the course of *one* transmission.

But the most surprising feature in all this discussion is that the most massive testimony of all has been entirely overlooked. A certain scholar of Medīna, Ibn Zabāla, composed in A.D. 814 a *History of Medīna,* which is known so far to have survived only in extracts cited in later works. What Sauvaget has to say of Ibn Zabāla's *History* is highly relevant here. "This work is for us of capital importance. Its interest lies (1) in the personality of the author, a disciple of the great *Medinian* doctor Mālik b. Anas. . . . Ibn Zabāla was in a position to assemble *on the spot,* in the best conditions for both transmission and criticism, the local tradition relating to the ancient history of the Mosque; (2) in his date. This gives us the assurance that the evidence of contemporaries could have been noted down without an excessive number of intermediaries, the composition of the work being *just one century later* than the execution of the operations of al-Walīd. To the extent that it is known to us, Ibn Zabāla's work remains the best authority on which to support an attempt to reconstitute the Umayyad mosque." [10]

In the extracts preserved from Ibn Zabāla's *History* in the historical work

[10] *Op. cit.,* 26.

of al-Samhūdī (d. 1506) — itself a work of extraordinary erudition [11] — there is the following statement, supported not by a single tradition, but by an imposing list of excellent authorities:

> "They report: [12] Al-Walīd b. 'Abd al-Malik wrote to the King [*N.B.*] of the Greeks: 'We purpose to restore the greatest mosque of our Prophet; aid us therefore to do so by workers and mosaic cubes.' And he sent him loads of mosaic cubes and some twenty-odd workmen — but some say ten workmen, adding 'I have sent to you ten who are equal to a hundred' — and (sent also) 80,000 dinars as a subvention for them." [13]

In view of this statement, supplementing the statements already cited, there seems to remain no possible doubt that the Greek Emperor did in fact supply some workmen in mosaics, along with mosaic cubes, for both the mosques of Medīna and Damascus, and sent also money or gold for the work on the mosque of Medīna at least.[14]

Nevertheless, this participation of the Emperor does raise certain questions, both in itself and in its implications. How did it come about that the Umayyads, officially engaged in almost continuous warfare with the Greeks (indeed the very next item in al-Ṭabarī's chronicle after the tradition discussed above is the report of a series of successes by Arab armies in Anatolia), were yet able to make this request, on at least two occasions, and that it was granted on each occasion? How, to begin with, were the requests transmitted? It is precisely here that the deficiencies of the chronicles — with their laconic "he wrote" — become most apparent. The chronicles were composed in 'Irāq, largely on the basis of 'Irāqī materials, more than a century later. Apart from the official public actions of the Caliphs, they supply absolutely no information about Syria in the Umayyad period. For the century during which Damascus was the capital of an empire extending from Central Asia to Spain, we remain almost ignorant of its own history, ex-

[11] See Sauvaget's remarks, *ibid.*, 27–8.

[12] Al-Samhudi, *Wafā' al-Wafā*, I (Cairo, 1336H) 367 (the chain of authorities, which cites not less than seven sources, is on p. 364 *infra*). I am indebted for this reference, and for that from Ibn 'Abd al-Ḥakam cited below, to Dr. S. A. El-'Alī.

[13] This quotation is followed by several other reports collected by al-Samhūdī from other sources. These give differing figures for the number of workmen, and specifically mention Syrians and Copts among them. One report adds that the Emperor sent also chains for the mosque lamps.

[14] Mr. John Parker has drawn my attention to the story of Theophanes (A.M. 6183, ed. de Boor, p. 365) which relates that 'Abd al-Malik, wishing to build "the temple at Mecca" was on the point of taking columns from a church at Jerusalem, but was dissuaded by local Christians who told him that they could persuade Justinian II to supply other columns, "which was done." There appears to be no confirmation of this story in the known Arabic sources.

cept for such scraps and crumbs as can be gathered from archaeology and by fragmentary materials from other sources.

As a result of this absence of data relative to the internal conditions in Syria, it is very commonly supposed that its conquest by the Arabs brought about the complete suspension of its former commercial relations with the Greek territories. Certainly, they were severely curtailed; but it would be an anachronistic proceeding to read back into mediaeval life the common phenomena of modern political relations. A state of official war did not necessarily involve the suspension of all commercial or courtesy relations. We have the indisputable evidence of the flourishing commercial intercourse between the Muslim cities of Syria and the Crusaders' ports of Tyre and Acre during the Crusades,[15] which was almost completely unaffected by the military operations between the opposing princes and their armies.

By lucky chance, however, we are not reduced entirely to conjecture in regard to the continuance of a certain amount of commercial intercourse between Byzantium and Syria (and/or Egypt) in the Umayyad period. Several fragmentary references survive in the Arabic sources:

1. A certain Abū 'Ubaid al-Qāsim b. Sallām compiled, about 840, an extensive and valuable corpus of traditions relating to the fiscal institutions of the Muslim State, which, unlike the better-known 'Irāqī works on the subject, preserves a number of Syrian traditions. On the subject of the tolls to be exacted from merchants at the frontier, he cites a regulation ascribed to 'Omar I (634–644) – whether accurately may be doubted, inasmuch as it was a commonplace of Muslim tradition to represent rules established after the time of Muḥammad as ordinances of 'Omar – which lays down the rates as 2½ per cent on the merchandise of Muslim traders, 5 per cent on that of non-Muslims resident in Muslim territory (i.e. *Dhimmīs*), and 10 per cent on the merchandise of foreign traders. As justification for the last rate it is added: "because they were taking the same percentage from the Muslim merchants when these entered their territory." A few lines later, the identity of these foreign traders is defined unambiguously: "the *Rūm* – they used to come to Syria." [16]

2. In a rescript of 'Omar II (717–720), the Caliph prohibits the placing of obstacles in the way of those who trade by sea. This is puzzling, since there seems to be no record of obstacles placed by Arab governors to trading by sea in the first Islamic century, and in fact Baṣra was already developing by that time a flourishing overseas trade through the Persian Gulf. The most

[15] Ibn Jubair (Wright-de Goeje), 298; trans. R. J. C. Broadhurst (London, 1952), 313.
[16] Abū 'Ubaid ibn Sallām, *Kitāb al-Amwāl* (Cairo, n.d.), nos. 1651 and 1655.

probable explanation, although admittedly inferential, is that this too must refer to Syria, and to trade between the Syrian ports and the Byzantine territories. From the very little and mostly indirect evidence we have about such places as Antioch and Latakia, they seem to have continued to flourish after the Arab conquest, and they can hardly have done so except by commerce.[17]

3. In the Arabic traditions relating to the striking of gold dīnārs by ʿAbd al-Malik, it is stated that "Papyrus used to be exported to the land of the *Rūm* from the land of the Arabs, and dīnārs to be received from their side." [18]

4. The fourth passage is still more decisive, and throws wide open a window into the subject of this discussion. It is found in a local history of Egypt, by the ninth-century Ibn ʿAbd al-Ḥakam (the same writer who transcribed, in another work, the rescript of ʿOmar II quoted above). In dealing with the settlements of the Arabs in Fusṭāṭ (Old Cairo), he relates at some length a dispute in regard to the possession of an establishment called "the Pepper House" (*Dār al-Fulful*).[19] This dispute is, of course, his main interest, but in a note he adds: "Why it was called the Pepper House was because, when Usāma b. Zaid al-Tanūkhī was director of taxes in Egypt, he purchased from Mūsā b. Wardān pepper to the value of 20,000 dīnārs, on instructions from [the Caliph] al-Walīd, who purposed to send that as a gift to the *Ṣāḥib al-Rūm*, and he stored that pepper in this house."

There can be no doubt that the *Ṣāḥib al-Rūm* here has its normal significance of the Emperor of Byzantium. And this little note seems to supply a clue to the whole transaction. There is no question at all of al-Walīd either threatening the Emperor with dire destruction, or sacrificing his patriotic feelings (whatever that may mean) to beg a favour. If such a present was made once, there is no reason to regard it as an isolated instance; it just happens that this one record has survived, and it is enough to show that, even while the two empires were at war, the continuance of commercial relations permitted the exchange of courtesies between the two courts.

To return finally to the public sphere, it has sometimes been remarked

[17] See H. A. R. Gibb, "The Fiscal Rescript of ʿUmar II" in *Arabica*, II, fasc. 1 (Leiden, 1955), 6, 11.

[18] Ibn Qutaiba, *ʿUyūn al-Akhbār*, I (Cairo, 1925), 198. Cf. J. Walker, *Catalogue of the Muhammadan Coins in the British Museum. Arab-Byzantine and Post-Reform Umaiyad Coins* (London, 1956), liv: "An exchange of letters between the Emperor and Caliph led to a breach of diplomatic and trade relations."

[19] Ibn ʿAbd al-Ḥakam, *Futūḥ. Miṣr*, ed. C. C. Torrey (New Haven, 1922), 98–99.

that the government of the Umayyad Caliphs was in several respects that of a "succession-state" to the East Roman Empire, notwithstanding the ideological oppositions involved in the sphere of religion. At the Byzantine court, one may suspect, a formal pretence was maintained that the Caliphs were just another group of barbarian invaders who had seized some of the provinces of the Empire, and were disregarding their proper status as vassal princes. Hence the indignation of Justinian II when 'Abd al-Malik infringed the imperial privilege of striking gold coinage. The Umayyad Caliphate, however, in its attitude to the Empire, was much more than a provincial succession-state. The two facets of its policy, the military assault and the administrative adaptation, point clearly to the real ambition of the first-century Caliphs, which was nothing less than to establish their own imperial dynasty at Constantinople. Seen in this light, their administrative imitations and adaptations take on a different character; they are not merely the tribute paid by raw and parvenu princes to the achievements of their predecessors, but an almost deliberate effort to learn the ropes and fit themselves to assume the imperial destiny.

But after the catastrophe (or victory) of 718, there follows a sudden and complete reversal. The whole policy of the Umayyad Caliphs swings decisively away from the Byzantine tradition and becomes oriented in the true sense, i.e. towards the East. This change, which has not as yet been fully appreciated by students of Arab history, is clearly marked in the reign of the caliph Hishām (725–743), a brother of the caliphs al-Walīd and Sulaimān who mounted the last, and fatal, assault on Constantinople, but the first signs can be seen immediately after its failure, in the reforming Islamizing policies of their cousin, the pious caliph 'Omar II.

It is tempting to bring this reversal into relation with the crushing disappointment of the hopes and dreams of the Umayyad Caliphs, and to see in it a kind of Freudian compensation – a deliberate rejection of the Byzantine tradition, motivated by resentment, and the search for some more compliant and attractive substitute. But it was almost certainly much more than that. After a century of Arab empire in Western Asia, the over-all structure of the empire was beginning to solidify, and the relative weight of its constituent provinces to tell. In the balance of forces, Syria still held a military preponderance, but one which became increasingly precarious, as first 'Irāq and then one province after another had to be held to obedience by Syrian garrisons. Ideologically, however (as we should say now), the center of Muslim culture and thought was already located in 'Irāq, and the imperial background and determinants of the Arabs of 'Irāq were not Byzantine, but Persian and hostile to Byzantium. It was the caliph Hishām who first grasped

the implications of the growing weight of 'Irāq and the East, and who deliberately broke away from the ambitions of his predecessors to organize the Arab empire as the future heir of Byzantium. So far as we can reconstruct, on direct or indirect evidence, the fiscal and administrative policies of Hishām, they appear consistently directed to establishing the Arab empire as the heir of the Oriental tradition and the successor of the Persian Sasanid empire. It was he, too, who began the process by which the administrative center was gradually moved eastwards, a process which was continued by the last Umayyad caliph Marwān II, and finally consolidated by the foundation of Baghdād under the succeeding 'Abbāsid Caliphate.